فوضى المسكونية والأخ الصغير

الأب أنطوان ملكي

تزايدَت في السنوات الأخيرة المشاهدُ المسكونيّةُ في بلادنا، فلم تعد تقتصر على استعراضاتِ أسبوعِ الوحدة المسيحيّة، بل باتت شبه أسبوعيّة، وعلى المستويات كافّة. فهُنا اشتراكٌ في صلاة، وهنا استقبالٌ وتبادلُ زيارات، وهناك زيّاحاتٌ مشتركة؛ زحمة "اجتماعيّات" ليتورجيّة...

إنّ جردةً لأسبابِ هذا السلوك، الظاهِرة أو المُقدَّرة، تكشف أنّ خليطًا من العوامل الاجتماعيّة والسياسيّة والاستعراضيّة يقف وراء هذه المشاركات. فتكون المشاركة إمّا نتيجةً لهذه العوامل أو ردَّ فعلٍ عليها، وفي الحالتين كِلتيهما "الضلالة الأخيرة شرٌّ من الأولى". عنصران أساسيّان يُفتَرَض أن يقوم عليهما كلُّ عملٍ يأتيه الإكليريكيّ الأرثوذكسيّ، من أيّ رُتبةٍ كان: الالتزام بصحّة الفكر اللاهوتيّ، واحترام التقليد الشريف. وليس واضحًا توفُّرُ هذين العنصرين في هذه المشاهد المسكونيّة.

تطرح هذه المشاهد مشكلتين. تتعلّق الأولى بالفكر اللاهوتيّ والتقليد الشريف، إذ تقع مسؤوليّة تقييم توفُّرِ هذين العنصرين على عاتق الأساقفة المُقامين على قطعِ كلمة الحقّ باستقامة. فمن حيث المبدأ، مسؤوليّة المطارنة هي أن يحفظوا صحّة الممارسة، والمفارقة هنا أنَّ غالبية هذه المشاهد الموصوفة أعلاه أبطالُها مطارنة، أو كهنة مزوّدون ببركة المطران أو مبعوثون من قِبله للمشاركة.

إنّ مشكلة المسكونيّة الأولى هي أنّها لا تتعاطى اللاهوت؛ لا يريد المنغمسون في العلاقات المسكونيّة أن يتعاطوا اللاهوت أو تعاليم الآباء أو قوانين المجامع. يستندون دائمًا إلى آيةٍ من هنا وآيةٍ من هناك، يُخرجونها من إطارها ليُجابهوا بها مَن يعارض المشاهد المسكونيّة، لا بهدف إقناعه بل بهدف حشره بتُهمةِ أنَّه غيرُ محِبٍّ أو متعصّبٌ ومنغلق. يلجؤون دائمًا إلى شهاداتٍ لا تقوم في أيّ حوارٍ جدّيّ، مِثل: "قال لي هذا المطران"، و"أخذني فلان جانبًا وأسرَّ لي"، و"أخبرني هذا المطران"، و"سمعتُ الخوري فلانًا يقول". وعمق المشكلة الأولى في الواقع المسكونيّ هي أنّ المخوَّلين الحكمَ لا يرغبون في النقاش اللاهوتيّ، وإذا أوردَ مُحاوِرُهم آيةً أو قولاً آبائيًّا أو استشهد بنصٍّ من التقليد المقدّس، يكون ردُّهم الحديثَ عن الطاعةِ وعدم جوازِ "تعليمِ المتقدِّم"، وقد يكون ذلك بنبرةٍ لا تخلو من الغضب وحتّى الترهيب.

المشكلة الثانية والأهمّ، هي تأثير هذه الاستعراضات على الإخوة الصغار. إنَّ مبدأ الاهتمام بالإخوة الصغار وإعطائهم الأفضليّة، وضَعَهُ الربُّ يسوع نفسه. فبحسب إنجيل الدينونة، لن يكون الفرزُ في اليوم الأخير على أساسِ رتبةٍ كهنوتيّة، ولا على أساس موهبة، إنما فقط على أساس "كلُّ ما فعلتموه بإخوتي هؤلاء الصغار".

كلُّ إنسانٍ هو أخٌ صغيرٌ لي، وأنا مُطالَبٌ بحَمله. عبارة "الويل لمَن تأتي على يده العثرات" تعني الويلَ لمَن يُعثِرُ أخًا صغيرًا. من هنا جاء قول الرسول "إِنْ كَانَ الطَّعَامُ يُعثِرُ أَخِي فَلاَ آكُلُ لَحْمًا إِلَى الأَبَدِ لِئَلاَّ أُعْثِرَ أَخِي" (١ كورنثوس ٨:١٣). أوّل مساعدةٍ يقدّمها الإنسان إلى الأخ الصغير هي ألّا يكون مَعثرةً له. فأين يأتي هذا الكلام في هذه الاستعراضات المسكونيّة؟

إنّ المشاهد المسكونيّة، موضوعَ هذا الكلام، مهما كانت الرتبة الكهنوتيّة للمشاركين فيها، توحي بأنّ الوحدة قائمة. استقبال بطريرك غير أرثوذكسيّ بالإنجيل والأفلونيّة؛ تسليم عصًا لأسقفٍ غير أرثوذكسيّ في أثناء سيامته؛ اشتراك كاهنَين، أحدهما أرثوذكسيّ والآخر كاثوليكيّ، معًا في زياح عيد السيّدة؛ تحويل زيّاح عيد الشعانين من كنيسة أرثوذكسيّة إلى كنيسة الموارنة المجاورة لكي يُنشدوا "المسيح قام"؛ إعطاء كاهن كاثوليكيّ قراءةَ الإنجيلِ في إكليلٍ أو إفشين الحلِّ في جنّازٍ أرثوذكسيّ؛ وغيرها الكثير من المشاهد والاستعراضات التي قد يُظهرُها البحث على وسائل التواصل الاجتماعيّ، كلّها مشاهد توحي أنّنا في الوحدة. وإذ يدبُّ الحماسُ في البعض، لا يتورّعون عن إعلان وحدةٍ هم غير مخوَّلين إعلانها، وهي في الحقيقة غير قائمة.

إنّ الإيحاء لأخٍ صغيرٍ بغير الحقيقة هو إعثارٌ له، أو دفعٌ به إلى العثرة. والقول له بالأعمال أو باللسان إنّ الوحدة قائمةٌ هو دعوةٌ أو دفعٌ إلى ممارستها. لا يُلامُ الأخ الصغير لأنّ الإنسان، بالفطرة، يُزعجه الانقسام ويرتاح إلى الوحدة، بخاصّةٍ إذا كان نصف أفراد عائلته من طوائف أخرى. الملومُ هو مَن يقبل أن يكون عثرةً للأخ الصغير، بسلوكه في وحدةٍ غير قائمة، وهذا الشخص واحدٌ من ثلاثة: إمّا مخدوعٌ يتوقّعُ أن يُعفيَه الربُّ من الويل فلا يفرزه مع جداءِ اليسار في يوم الدينونة، أو يرى نفسه فوق الإدانة، أو لا يؤمن بالدينونة أصلاً...